تعريف عن الكتب

J. Spencer Trimingham. *Islam in Ethiopia*. XVI — 300 pp. in 8° avec 2 cartes h.-t. et un index Oxford University Press. Londres. 1952. Prix 25 sh. net, chez Geoffrey Cumberlege. Amen House. Warwick Sq. London E. C. 4.

ليس هذا الاثر الا القسم الثاني من دراسة وصفية للاسلام في افريقيا بدأت بدراسته في السودان ، اما كلمة ايتوبيا فتعني هنا جميع القسم الجغرافي الذي تقع فيه مناطق امبراطورية منليك واريتريا ومناطق الصومال الثلاث لا مملكة الحبشة المسيحية وحدها .

ولقد كانت منطقة الجبال الايتوبية المرتفعة مع ساحل البحر المتوسط احدى المناطق النادرة من افريقيا التي كونها اقليمها صالحة لانتشار الحضارة فيها .

ومن نكد الدهر ان البيد والصحاري السودانية قد سدّت المنافذ امام دخول الحضارات المصرية والفينيقية والاغريقية ... فلم تستطع ايتوبيا ان تتلقى في شمالها منذ اوّل القرون الوسطى قبل التاريخ المسيحي الا مؤثرات جوالي اليمن السامية ، ولقد افضت هذه المؤثرات في ناحيتي البحر الاحمر الى حضارة مشتركة توطدت بعد ذلك في وحدة الدين المسيحي . ومنذ القرن السابع الميلادي اصبح الاسلام عامل التوحيد الروحي بكل الشرق الادنى وافريقية الشمالية . فاوجد هذا النهج الجديد تصدعا فصل الحبشان عن العرب فصلا تاما كما فصلت اعماق البحر الاحمر الطبقات الجيولوجية من جهة الى جهة .

وما جاءت الحضارتان اولا متناقضتين ، فان المسيحية الحبشية في ايتوبيا الشمالية قد انتشرت طوال العهد الذي تستطيع ان تسميه العهد السابق للتاريخ في الجبال وضمت اليها جميع حبش الاغاو — الحامي « agao - hamitique » . وفي غضون القرون نفسها ، بسط العرب نفوذهم على جميع الساحل الافريقي الشرقي ولقد ساعد هذا الانتشار الافتقار الذي كان يحس به السكان الافريقيون الى تفتح عقليتهم اللامبالية التي ارعبتها عبادات الطبيعة الوثنية تفتحا ضمن شعور المجتمع الاسلامي المتوّي القائم فوق اعتبارات الاجناس والاقاليم وحاجتهم الى

مستوى ادبي سهل . وتلك الاوضاع كانت ملائمة ايضا لاكتساب الشعوب الزنجية التي هي من اصل حامي ، لان تقلص الحياة البدوية قد تطلب بقوة من ذلك العهد نفسه رابطة دينية تقوم على قاعدة حضرية على شاكلة رابطة الاسلام ليتم تطوره نحو دور التحضر والزراعي والحياة في المدن .

والحبشة المسيحية التي كانت مطوقة من كل جانب كان عليها ان تعتنق الاسلام اما فجأة عقب فتح عنوة ، واما على مر القرون على أثر تغلغل بطيء. وذلك منذ الساعة التي وقفت فيها الحضارة الاسلامية — الحامية فوقعت قدمها في حصن الجبال العالية ، ولم يعد يسع احد ان يوقف انتشار الاسلام في جميع القارة السوداء. مبتلعا الفرع الثاني من العرق الحامي الذي صادف فيه دعاته الاقوياء على شاكلة دعاته في السودان وافريقية الشمالية .

ولقد حول الاحابيش المحصورون في حصنهم الطبيعي نشاط توسعهم الى المقاومة ، بيد ان مستواهم الثقافي والروحي الذي ردهم اليه انعزالهم لم يمكنهم من معارضة ذلك « الاختيار » الذي فرض عليهم على حين غرة على شاكلة فرضه على اوربة حيال الاسلام . وتركت صدمة الانتصار الاسلامي في القرن السادس عشر ومن بعده غزوة الغالاس « Gallas » المدمرة قوى الشعب الباطنية بدون ردات فعل ومنهكة . والمسيحية الحبشية المنحصرة في « ارثوذكسيتها » عنوان استقلالها وايمانها ، لم تقو الا على ان تكون ضعيفة النمو في مصاف شكل دين قبلي اعلى . فكانت الجزيرة صغيرة في وسط خضم اسلامي يحيط بها من كل جانب — فان الخريطة رقم ٦ تبين ذلك بيانا باعثا على الاسى — اما محاولة الآباء اليسوعيين في عهد النهضة ليحملوا دما جديدا الى الاحابيش فلم توفق لانهم كان يعوزهم ان يعاشوا نفسيتهم فلذلك لم يتأت لها ان تكون ناجعة في معالجتهم من كانوا يشكون من فقر بالدم .

وعلى كل فان الحبشة قد غيرت وجه تاريخ افريقية بقاومتها . وكانت مسيحيتها الصخرة التي تكسرت دونها امواج الانتشار الاسلامي الوافدة من شبه الجزيرة العربية من جهة ومن الساحل الافريقي الشرقي ووادي النيل من جهة اخرى .

واذ استرف الاسلام قواه على تلك الصورة لم يبق بتقدوره التمركز لا على

جبال الحبشة والاعلى الساحل الشرقي بقوة سياسية راسخة دائمة بدون تأثيرها ومقدرتها قاعدة لينتشر منها صوب قلب القارة ويتمكن من تحقيق وحدة افريقية تحت رايته ، فان مقاومة الحبشان للضغط الوافد من جهة وادي النيل ومن افريقيا الشرقية قد وفرت الوقت لدخول دين آخر نشيط الا هو دين المسيحية الغربية الذي تفوق بسرعة على الاسلام الوافد بجماعته من الاقليم الحار وتصد انتشاره .

ولو عرف اقدام مجهود المرسل المسيحي وقوته منذ مئات السنين الاخيرة ان يتخلصا مما هو غربي محض ولا يكون جزءا من تقاليده الدينية ، لكان باستطاعة المسيحية على رغم نجاح الاسلام في الشمال الافريقي والسودان ان تكتسب النفس الافريقية ولصارت القوة الموحدة لافريقية الجنوبية والوسطى ، وذلك ما هو مدينة به لبطولة المسيحية الحبشية العريقة الوفية .

هذه هي النظرة الاجمالية التي اتحفنا بها الكتاب الرائع الذي وضعه المؤلف سبنسر تريمنغهام وجاء بها في مقدمته التي تبين الى اي مبلغ لا ينفصل تاريخ الحبشية وتاريخ كنيستها الجليلة الوطنية عن دراسة تاريخ الاسلام جميعه في ايتوبيا وعن منظماته وجمعياته على مختلف جماعاته القبلية والدينية وسيكون هذا المؤلف الذي لم ينحصر في حدود عنوانه ، دراسة بالواقع للاوضاع التاريخية والجنسية والجغرافية وللتفاعل الذي تم في خلال قرون عدة لقيام المسيحية والاسلام في هذه المناطق .

وفضلا لما لهذا المؤلف من قيمة بالنظر الى الاضواء التي يلقيها على تاريخ الكنيسة في ايتوبيا ونفسية الحبشان بدراسته للاسلام فانه لذو فائدة لا يستغني عنها جميعنا .

هنري شارل